مجلة منتدى الأستاذ

المجلد: 21 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2025 الصفحات 687- 699

تمثلات التجريب في الخطاب الروائي العربي المعاصر

قراءة في مدونة "الرواية العربية ورهان التجديد" لمحمد برادة أنموذجا

Representations of Experimentation in Contemporary Arabic Narrative Discourse: A Reading of Mohamed Berrada's "The Arabic Novel and the Wager of Renewal" as a Model

محمد بن سميشة[1]، * بلقاسم زروالة [2]

[1] *جامعة أحمد بن يحى الونشريسي/ تيسمسيلت (الجزائر)، mohamed.bensemicha@cuniv-tissemsilt.dz*

[2] *جامعة أحمد بن يحى الونشريسي/ تيسمسيلت (الجزائر)، belgacem.zerouala@cuniv-tissemsilt.dz*

تاريخ الإرسال: 2025/08/05 تاريخ القبول: 2025/09/09

الكلمات المفتاحية:

التجريب؛
الخطاب الروائي؛
محمد برادة؛
التهجين اللغوي؛
التجديد؛

الملخص:

يهدف البحث إلى استقصاء تمثلات التجريب في الخطاب الروائي العربي المعاصر، متخذاً من مدونة محمد برادة "الرواية العربية ورهان التجديد" أنموذجاً تحليلياً، ويتبع منهجاً تحليلياً وصفياً يرصد ظواهر التجريب الفنية (التهجين اللغوي، التشظي، التذويب) والفكرية (نقد ثالوث المحرمات، استثمار المعرفة).

وتتركز التساؤلات حول: ما هي حدود التجريب الروائي العربي عند برادة؟ وكيف تجسدت أشكال التجديد في كسر البنية التقليدية وتوظيف التعدد اللغوي والتخييل الذاتي؟

Keywords:
Experimentation, Narrative discourse, Mohamed Berrada, Linguistic hybridization, Renewal,

ABSTRACT:

The study investigates representations of experimentation in contemporary Arabic narrative discourse, using Mohamed Berrada's "The Arabic Novel and the Renewal Wager" as an analytical model.

It follows a descriptive-analytical methodology tracking artistic phenomena (linguistic hybridization, fragmentation, dissolution) and intellectual ones (critique of the taboo triad, knowledge appropriation).

Central questions address: What are the boundaries of Arabic novelistic experimentation in Berrada's view? How do renewal forms manifest in dismantling traditional structures and deploying linguistic multiplicity and autodiegetic imagination?

* محمد بن سميشة.

مقدّمة:

كثيرا ما يقف النقاد على تمظهرات الفعل الإبداعي الروائي العربي المعاصر كي يكشفوا عن مسارات التحوّل التي تلامس مكوّناته سواء على مستوى الشكل أو على مستوى المضمون، وذلك كله من أجل الكشف حقيقة الرواية العربية ونظام تكونها الإبداعي ومسالك التجديد فيها، فالرواية العربية استطاعت كغيرها من الروايات أن تحتضن الأسئلة المتناسلة التي عرفتها الرواية الجديدة، كتمرد شكلها المستمر على ذاتها، واستلهامها لأدوات فنية جديدة يغلب عليها الطابع التجريبي.

إن أهم مشكلة تعرّض لها النقد في تشكيل هذا الخطاب هي التساؤل حول فكرة أن الرواية العربية لا تشتغل على الشكل التقليدي الخطي والبناء المتصنع المفتعل، بل تشتغل على عناصر الحكي الجديدة المبنية على التذويب والتشظي، هذا إضافة إلى القالب اللغوي الجديد الذي يعتمد على التهجين وتعدد اللغات؛ وهي في الحقيقة كلها عناصر لا تسعى إلى نقل التجربة فحسب؛ بل تهدف إلى الوصول إلى إنتاج صياغة جديدة مجانبة للسائد ومغايرة للمعتاد، وخارقة لقواعد اللعبة السردية المتواضع عليها، وذلك بما توفره من إبدالات خاصّة تعرُج إلى فضاءات أرحب تستوعب التجربة وتنميها وتوصل معناها، فتنتقل إلى تجريب يطبعها نحو البحث عن واقع فني بديل مستقل عن باقي الخطابات الأخرى.

لقد أصبح موضوع التجريب في الرواية العربية محط اهتمام الكثير من النقاد، ومن بينهم الناقد محمد برادة الذي رأى أنه لم يكن فكرة أو تقنية فحسب، وإنما هو توجه فكري جديد مس الكتابة الروائية العربية في الآونة الأخيرة. فما هي إذن حدود التجريب الروائي العربي؟ وكيف تمظهرت أشكاله عند الناقد محمد برادة؟

ولكن قبل الحديث عن هذا كله لابد من تقديم تعريف للتجريب وبدايات ولوجه إلى عالم الرواية.

التجريب ومفهومه في الخطاب النقدي الروائي:

يعتبر مصطلح التجريب من المفاهيم الصعبة التي يستحيل تحديد تعريفها، فهو مفهوم غامض وعويص على الفهم، ويحتاج إلى إمعان في النظر، وذلك نظرا لاختلاف الرؤى حول مفهومه واستعماله عند النقاد بدلالات متعددة.

تشير الكثير من الدراسات إلى أن هذا المصطلح ظهر مع الروائي الفرنسي إميل زولا (1840-1902م) في منتصف القرن الثامن عشر رابطا إياه بمقصد علمي، وذلك على اعتبار أن الفن الروائي حسب رأيه ما هو إلا تجربة قائمة على فرضيات علمية، فهو مبني "على تجميع الملاحظات والحقائق والمعطيات قبل سياقها في نسق روائي"[1].

لقد كانت غاية التجريب بالنسبة إلى زولا تقتصر على الكشف عن الحقائق المتصلة بالتجارب العلمية فقط، ليشيع بعد ذلك مفهومه ويتوسع عند النقاد، ويستعمل لدلالات متعددة في الرواية لعل أبرزها التجديد والإبداع. وهو في الحقيقة مفهوم مرتبط بمصطلح الرواية الجديدة الذي ظهر على يد بعض الأدباء الفرنسيين في

بداية الخمسينات، والذين استطاعوا ابتداع أشكال جديدة لا توظف بطريقة تقليدية في الرواية، وإنّما توظف بطريقة جديدة تتماشي مع تجدد الإنسانية التي تتغير باستمرار فهو يعتمد على[2]:

تعدد الشخصيات.

كسر خطية الزمن والحدث الروائي.

تصوير الواقع بشكل دقيق وبرؤية بسيطة وسطحية وبالإضافة إلى الاستناد على اللغة، وذلك لما تمنحه للكتابة الروائية من جمالية وكثافة دلالية أسلوبية وبلاغية".

إن النقد الأدبي في ظل هذه المقاربات يميل إلى أن التجريب هو الالتزام بإبداع مفاهيم جديدة تتجلى أساسا في الشكل ونوعية التخييل، وذلك حتى "يظفر بقبول المتلقين دفعة واحدة، بل يمتد إلى أوساطهم بتوجس وتؤدة، ويستشير خيالهم ورغبتهم في التجديد باستثمار ما يسمى بجماليات الاختلاف، ويتوقف مصيره لا على استجابتهم فحسب، كما يبدوا للوهلة الأولى، بل على قدر يشبعه من تطلعاتهم البعيدة عن التوقع ويوظفه من إمكاناتهم الكامنة[3]. فالنص الروائي لم يعد ذلك النص المغلق على الأشكال القديمة، بل أضحى منفتحا على السرد والتخييل والتجديد وتطويع اللغة، فضلا عن كيفية عرض الشخوص الروائية وجعل الفضاءات والأزمنة متداخلة. هكذا أصبح إذن التجاوز والاختلاف من مبادئ التجريب، فقد اعتبر خيارا وحيدا في كسر النموذج النصي للخطاب الروائي الذي يحيل إلى البنية التقليدية والإغراق في استنساخ الواقع والتمسك بالموضوعات المجترة، وتحقيق رغبة النص الروائي للبحث عن نموذج عالمي في الرواية الفنية يتضمن[4]:

ابتكار عوالم متخيلة جديدة وتوظيف تقنيات فنية محدثة تتصل بطريقة تقديم العالم المتخيل وتحديد منظوره مثل تقنية تيار الوعي وتعدد الأصوات.

اكتشاف مستويات لغوية في التعبير تتجاوز المألوف في الإبداع السائد عبر تعليقات نصية متشابكة ومتراسلة مع توظيف لغة التراث السردي أو الشعري، أو إدراج اللهجات الدارجة أو أنواع الخطاب الأخرى لتحقيق درجات مختلفة من شعرية السرد"، وهي كلها تقنيات تجعل النص الروائي شكلا مفتوحا مستوعبا لمختلف الإضافات التي تحرر الرواية من الشكل المتبلور السائد عبر تاريخ الرواية العالمية.

بهذا المعنى أصبح تعريف التجريب واضحا بعض الشيء فقد جُعل قرين الإبداع لأنه محكوم بخوض المغامرة، فهو يتصارع مع الرواية التقليدية ويسعى إلى رفض كل المعايير الجمالية القديمة ليبني محلها نظاما جديدا يتماشى مع الحاضر، وهذا يعني أنه يرتبط بشكل مباشر بالتجديد، كونه ملمحا من ملامحها ومن أهم مظاهرها، فهو نوع من الوعي يمضي نحو رفض الأشكال القديمة ليبني عليها أشكالا جديدة تتصل بوظيفة الرواية وماهيتها.

تجليات التجريب في الخطاب الروائي العربي من منظور الناقد محمد برادة:

لقد أصبح التجريب مركز اهتمام الكثير، إذ أعلن حضوره الخاص والمتميز داخل تفاصيل الكتابة الروائية، وعلى ضوء ذلك ظهرت الرواية العربية لتفرض جدلية البحث عنه أيضا، إذ أبانت عن خصوصيتها هي الأخرى بشكل جديد ومختلف وقدمت طرقا مبتكرة في الكتابة تتقارب مع محاولات تجريبية جادة تخرج عن صرامة بنيته

الكلاسيكية إلى أفق حداثي متعدد الأبعاد، وهو الأمر الذي جعلها تحقق النجاح من خلال نماذجها المعدودة التي أكسبها هذا النهج سمة الإبهار والمغايرة، ويمكن أن نعلل هذا الانفجار في الكتابة الروائية العربية لسببين:[5]

الأول بروز وعي نقدي في التعامل مع ثقافة الآخر.

والثاني يرتبط بتحولات سياسية واجتماعية، لعل أبرزها هزيمة 1967م والتي كانت سببا في تلاشي الإيديولوجيات وخوض ممارسة فعل الكلام.

لقد شهدت التجارب النقدية مقاربات منهجية متعددة تكشف عن مدى انفتاح الرواية العربية على روافد معرفية وجمالية مستحدثة تحيل على نظائر لها في سجل الرواية العالمية، تشغل كل بنيات الحكي بوعي جديد يجرب "السرد المتعدد الأصوات وتقنية المونتاج ... وإحياء عناصر من السرد التراثي واصطناع لغة المؤرخين القدامى ومعجم الصوفيين والمزج بين الأجناس الأدبية في رحاب النص الروائي"[6]، وهذا يعني أنها وجدت الطرق المثلى والتقنيات المناسبة التي تعامل فيها الروائي مع مادته لتأسيس نص روائي ينطلق من قواعد ورأى حاسمة في حياة مجتمع ترتسم فيه ملامح الواقع العربي المتغير، ومن بين هؤلاء النقاد الذين أكدوا ذلك وأثبتوا بأن التجريب كان نقطة تحول في مسار الرواية العربية الناقد محمد برادة، فهو يرى في مدونته **"الرواية العربية ورهان التجديد"** أنها وجدت فيه تبريرها لإبداع نص جديد ومختلف أعادت من خلاله بناء علاقاتها بالواقع المتجدد، وذلك من خلال أشكاله الفنية والفكرية الجديدة التي كانت أكثر قدرة على تحقيق المغايرة.

يعتبر برادة في مدونته أن التجريب بديل عن التقليد وهو مناهض للقديم، وذلك بحكم ما يتوفر عليه من عناصر الإضافة والنوعية، فهو يسعى دائما إلى إحداث متغيرات جديدة في الخطاب الروائي العربي تتمرد على التقاليد الجامدة وأصول الكتابة الكلاسيكية التقليدية، فهو مسكون بالتحول "والمغايرة إذ يستوعب مختلف الإضافات، يتوفر على مكونات نصية وجمالية تتعدى الأصل الاثني أو الثقافي لأنها مكونات تعتمد على السرد والتخييل والحبكة وتعدد اللغات والأصوات، وهي جميعها عناصر مشتركة في التراث الروائي الإنساني المتفاعل باستمرار"[7]؛ وحتى يحدد الناقد لنا مظاهر الجدة في الرواية المغاربية وقف على جانبين: أولهما يتمثل في استعمال الخطاب الروائي المغاربي لمفاهيم وأدوات فنية وشكلية جديدة شكلت اتجاها متميزا في تحليل الخطاب الروائي العربي، وثانيهما يتمثل في البحث عن الخصائص المعرفية والإشكاليات الفكرية في الرواية العربية؛ وهي كلها قواعد حديثة قامت على أنقاض القديمة حتى تساير الفن الروائي الجديد.

إن ما يطمح إليه محمد برادة في هذه الدراسة هو البحث في مسالة التجريب الحداثي وعلاقته بالكتابة الروائية العربية، وهو يتناول أهم الاتجاهات الفكرية والفنية التي أحدثت انقلابا تاما في بنية الخطاب الروائي العربي، كما أنه يتطرق أيضا لمسارات التحول التي لامست مكونات المتن ومستويات التعبير، معتمدا في ذلك على مفاهيم التجريد والتجديد وتوثيق مصطلح الرواية الجديدة من خلال دراسته لنماذج عربية التي لم يكن غرضه منها تقديم إجابات أو تصحيح انطباعات منتشرة، وإنما غرضه من ذلك هو "السعي إلى إعادة صوغ الإشكالية المتعلقة بحجم الإبداع وعلاقته بأسئلة المجتمعات العربية"[8].

الخصائص الفنية في الرواية العربية:

– التهجين اللغوي:

تستلزم الرواية في سياق كتابتها السردية أنماطا لغوية متعددة من بينها أسلوب التهجين، وهو أسلوب جديد يعمل على تجاوز المألوف وإحداث الكسر اللغوي، وخلق لغة جديدة تستوعب الأسئلة المتناسلة التي تطرح عليها بشكل لغوي متفرد وتركيب مختلف تتداخل فيه الكثير من اللغات والرؤى والأساليب، وذلك "عندما تشتبك عدة ملفوظات وأساليب، أو على الأقل ملفوظين اثنين في لحمة الخطاب السردي وتجعله يراوح بين رؤيتين ووعيين يصعب أحيانا تحديد وجهتهما الدلالية، فتنعدم الحدود الشكلية الفاصلة بين الملفوظات المتشابكة، كما يتخذ الملفوظ المتولد عنها شكل بنية هجينة تضمن ثنائية اللغة والمنظور والصوت"[9].

هذا الوعي كان بمثابة اللوحة الفسيفسائية التي يكثر توظيفها وتسخيرها في النص الروائي، فقد أصبح ظاهرة مستفحلة لا تترجم حوارية اللغات فحسب، وإنما تلمس التغيرات والتحولات "التي تترجمها لغة الخطابات المؤطرة لثقافة المجتمع وصراعاته الاجتماعية والإيديولوجية"[10] في شكل بارع وأسلوب إبداعي يلجا إلى التهجين اللغوي حتى يؤدي رسالته ويترجم وجهات نظر متباينة حول الواقع، وذلك تبعا لاختلاف الشخوص وتباين ثقافتهم ومكانتهم الاجتماعية.

كان أول من أدرك أهمية هذا المكون في تشكيل الخطاب الروائي هو ميخائيل باختين، وذلك من خلال كتابه الخطاب الروائي، فقد أبدى فيه اهتمامه باللغة انطلاقا من التهجين، فاعتبره مدخلا أساسيا لفهم الصراعات الاجتماعية والكشف عن الخصوصيات الثقافية والإنسانية التي يحملها اللسان حول العالم، حيث تظهر فعاليته وإجرائيته عبر "مزج لغتين اجتماعيتين داخل ملفوظ واحد، و... التقاء وعيين لسانيين مفصولين بحقبة زمنية، وبفارق اجتماعي، أو بهما معا داخل ساحة ذلك الملفوظ"[11] فهو يعود إلى متكلم واحد، لكن يشهد تفاعلا عمليا يمتزج فيه ملفوظان، يضمنان له ثنائية اللغة والمنظور والصوت.

لقد أفضى اكتشاف هذا المكون إلى البحث عنه في الرواية العربية، حيث لاحظ الناقد محمد برادة أن هذا النوع من التشكيل اللغوي يحضر بشكل كبير في الرواية العربية، وذلك لقدرتها على أن تجسيد هذه التقنية، فالنص الروائي العربي استطاع أن يتحرر إلى حد ما من سلطة اللغة الثابتة نتيجة لخلط اللغات والأساليب والرؤى، وذلك كله حتى يلاحق التحولات ويعبر عنها "على إيقاع التحديث وتحولات المشهد العمراني والتصنيفات الطبقية، والاصطفافات الإيديولوجية"[12] في لغة مصطنعة ومنوعة تتداخل فيها الكثير من الألفاظ، كما تنطوي على رؤى جديدة متباينة ودلالات محتملة تتمظهر بين الحين والآخر حتى تعكس واقع المجتمعات وتعبر عن تناقضاته.

لقد حاول برادة أن يحدد التصور الفني والجمالي الذي تسلكه الكتابة السردية داخل النصوص الروائية العربية في تعالقاتها اللغوية وأوعائها المتصارعة خاصة بعدما أدرك أن النص العربي لا يحقق وجوده وقيمته الفنية وجماليته المنشودة إلا بانفتاحه على العديد من اللغات، وانكبابه على ألسن عديدة تقتبس ألفاظا أجنبية وعامية مدمجة مع اللغة الأصلية، وقد وقف الناقد على هذه التمظهرات، وهو يرى أنه تشكل عبر توظيفات شتى، وذلك حسب

المراحل التي مرت بها الرواية العربية، ففي مرحلة الستينات كان يوظف أشكالا تعبيرية مختلفة منها "لغة التراث ولغة الشعر والاستبطان إلى جانب لغة الوصف والسرد"[13]، وهي كلها لغات حققت في الرواية العربية سمة التعدد لما لها من دلالات وأبعاد عميقة كانت كفيلة بتقديم المشهد اللغوي في الرواية العربية وما لها أيضا من قدرة على عرض الصورة برؤية أوضح تتجاوب مع خصوصيات القارئ أو الإنسان العربي، وكثيرا ما يوجد هذا النمط في روايات صنع الله إبراهيم وإلياس الخور.

أما المرحلة الثانية فتمثله النصوص الروائية المختارة ضمن سياق الكتابة السردية الجديدة، إذ يبرز التهجين في مزيج ينطوي على "ألفاظ أجنبية وتعبيرات متصلة بالحياة اليومية والوسائط التكنولوجية المعوضة لوسائط الاتصالات التقليدية."[14]ولعل هذا المنظور يفيد بأن هذا الشكل يمثل محاولة جديدة في صناعة الرواية العربية، فهي تستقطب الكثير من الألفاظ ثم تدمجها باللغة الأصلية، فتتلون هذه الأخيرة وفق رؤى جديدة تمتزج بالعامية والأجنبية لتتلاءم مع روح العصر وتساير التحولات والسيرورات وتعبر عن الأوضاع التي يعيشها البلدان العربية في عالم فني متطلع للجديد ومشبع بتعدد الأصوات ومستويات الكلام.

ويلتمس برادة مسالك التهجين اللغوي في عدد من النصوص الروائية العربية، ففي رواية "سحر أسود" 2007م لحمدي الجزار و"وقوف متكرر" 2006م لمحمد صلاح العزب فهو يجد أن "التهجين يطرح نفسه بقوة وينقل إلينا صورة عن لغة الكلام في فضاءات المهمشين وأجواء الشباب المتلهفة على الانخراط في سيرورة التحديث والصراعات الرائجة في سوق العولمة "[15]. إنه يستكشف من منظوره لغات متباينة السمات والمنحدرات الاجتماعية والثقافية، ويجعل منها فضاء إبداع ينفتح على ملفوظات جديدة تستوعب الأصوات المتصارعة في المجتمع العربي، وتكشف التناقضات التي يمر بها في تحولاته الاجتماعية والثقافية، فتتخذ منها مظهرا أدبيا يدفع بها نحو رحاب التعدد والانفتاح.

كما تتضح معالم التهجين أيضا في رواية "العاب الهوى"2004م لوحيد الطوية، وذلك بشكل مختلف إذ يجمع الملفوظ فيها بتعابير تتراوح بين الفصحى والعامية، وهو ما يوصلنا إلى نص يصطنع شكلا لغويا جديدا يسميه البعض باللغة الثالثة فهو يخلق "تواشجا بين الفصحى والعامية ومرونة في تركيب الجملة تتيح قراءتها وكأنها لغة الكلام اليومي"[16]، فيعمل بذلك على اغناء اللغة الفصحى ضمن تركيبات فنية تمتزج بالعامية وهو ما "يتيح لهما معا إمكانية أعمق للتجديد والتطور والمواكبة"[17] في شحنة فنية تصب في جمالية الرواية.

ما يمكن استخلاصه أخيرا هو أن برادة يعتبر بأن التهجين اللغوي مظهر من مظاهر التجريب في الرواية العربية تتداخل فيه الألفاظ والتعابير بشكل مختلط لتقدم إضافات جمالية وإبداعية تجعل اللغة تتخلص من قداستها وتتمرد على نظامها الثابت وهذا لا يعني أن التهجين في الرواية العربية من منظوره يوظف لضرورة فنية فقط، وإنما هدفه معرفي أيضا فهو يسعى إلى "هدم المسافة القائمة بين لغة الكلام واللغة الفصحى وهو توجه يتوخى ضمنيا بلوغ الدقة من خلال اللجوء إلى الكلمات الأجنبية المتوفرة للتعبير عن الأدوات والوسائط التكنولوجية والرقمية، وأيضا الحفاظ على حيوية التواصل باستعمال الكلمات والاشتقاقات التي تزخر بها اللغة الدارجة"[18].

– التشظي والبناء الروائي:

يرى برادة أن التجريب الشكلي في الرواية العربية يتصادى مع إحساس الروائي بقصور الشكل الواقعي التقليدي على تقديم رؤيا جديدة ووعي فني للعصر داخل التشكل البنائي للنص الروائي العربي، خاصة وأن الخطاب الروائي الجديد تحرر من سلطة السارد ونظرته الأحادية للواقع، كما أضحى يحكي "وهو يضع مسافة بينه وبين محكياته ليكشف ما هو قابع تحت السطح، ويتيح للذات المشروخة، المتشظية أن تشكك في تماسك الواقع وتقدمه بثقوبه وثغراته، بضوضائه وصمته"[19]. فلا مجال من منظور الناقد إذن لخطية ولا لاستمرارية في الرواية العربية إذ أن الحوار الداخلي وتعدد الأنا كلها أصبحت أساليب تحد من خطية السرد وأحادية الخطاب.

إن الشكل الروائي بالنسبة لبرادة هو في تغير دائم ومستمر، فهو يبحث عن آليات جديدة تستطيع سرد الواقع بأساليب سردية مغايرة تعتمد أساسا على الإفادة من التجريب التشكيلي في التعبير الأدبي، وهي تتمثل أساسا في:

التخييل: يصرح الناقد أن الرواية العربية كسرت الشكل الواقعي الكلاسيكي المعتمد، وذلك من خلال إبداع نص جديد ومختلف يعيد بناء علاقاته بالواقع المتجدد، وذلك باشتغاله على التخييل الذي يشكل جوهر عملية الخلق الفني والإبداعي، وهذا ما وضحه من خلال تحليله لرواية الرسائل 2006م التي اتخذت "شكل تخييل ذاتي يستحضر علاقة حب بين خالد ومريم وهو ما يجعل القارئ يخمن تمزق الذات خالد وهروبه إلى بعض تفاصيل حياته اليومية ليدرا عنه أسئلة الوجود في العالم"[20]، فالرواية العربية أصبحت لا تكتفي برصد ما هو واقعي بل تجاوزت ذلك إلى خلق آليات متطورة يحضر فيها التخيل ليحولها إلى حقيقة موضوعية ملموسة افتراضيا من خلال التعامل مع اللغة وذلك باعتباره جوهر وأساسي في أي فعل إبداعي.

الحد الأدنى في صوغ النص الروائي: إن تشظي الشكل الروائي قد أصبح يتجلى في استعمال لغة مقتصدة تحتشد بالرمز والإشارة، وتعتمد على التلميح والدلالات دون عرض تفاصيل زائدة، كما أنه ابتعد عن الإسهاب الممل وهو الأمر الذي يعجب المتلقي، فهو يسجل "إعراضا عن ملاحقة الواقع في كلته واختصار السرد وتعويضه بتفاصيل صغيرة تكسر وهم القبض على ما هو عام وشمولي"[21]، وهذا يعني أن جمالية النص الروائي وتألقه أصبحت تكمن في اختصار المعنى والإيجاز والاعتماد على الحس الباطني المتفجر من خلال أغوار الكلام وهذا ما فسره برادة من خلال تحليله رواية وقوف متكرر 2006م التي استطاعت أن تحتفي بالجمال والمتعة، وذلك من خلال شكلها المتشظي المختصر الذي يحمل مضاعفات دلالية عدة، فبقوة الترميز استطاعت هذه الرواية أن تحمل دلالات شتى في صفحات قليلة "وتوقف عند بداية شبابه وصداقته مع منعم ومحاولتها إنشاء مشاريع صغيرة يتعيشان منها، ثم مشاهد من مغامرتهما مع العاهرات"[22]، فهذا الأسلوب الجديد هو الذي يضع القارئ مباشرة أمام الهدف والمعنى فيكشف شعور السارد وإحساسه.

وغير هذا النموذج هناك نماذج نصية أخرى تسلط الضوء على تشظي البنية وكتابة الصوغ في حده الأدنى كأعمال حمدي أبو جليل وعبير أسبر وخالد إسماعيل، وهذا ما جعل برادة يعتقد أن هذا التوظيف "لا يؤول إلى نتائج موحدة بل يظل التمايز قائما بين روائي وآخر، حسب الموهبة والمعرفة والرؤية إلى العالم"[23].

لقد أبدى برادة اهتمامه بهذا العنصران اللّذان يعدان من أبرز معالم الرواية العربية، فهما يعكسان حالة الانشطار والرؤية الفوضوية التي تعيد بناء الخطاب الروائي من جديد، وذلك لما يعرضه الروائي فيهما من مواضيع غنية عبر فنيات عديدة تستبطن الوهم آو الإيهام وتنشط الخيال وتختصر السرد في جمل قليلة كافية لأداء معان كثيرة.

– تشكلات التذويب وتمظهراته في الخطاب الروائي العربي:

يعتبر عنصر التذويب شكلا من أشكال التحول في الكتابة الروائية العربية، فهو خطاب يعبر عن الذات باعتبارها العنصر الأبرز في الحكي، وذلك لما له من صلة بالتجربة الشخصية والمغامرة الفردية، ففيه يحرص "الروائي على إضفاء سمات ذاتية على كتابته وذلك من خلال ربط النص بالحياة والتجربة الشخصيتين، وجعل صوت الذات الكاتبة حاضرا بين الأصوات الروائية لتمييز محتوى النص عن الخطابات الأخرى التي تعطي الأسبقية للقيم والأفكار الغيرية"[24].

لاحظ برادة بأن التذويب أضحى ملمحا جماليا يتحكم في سياسة السرد داخل الرواية العربية، وأنه صار يظهر من خلال التخييل الذاتي، وذلك كون أن السرد هو "خطاب الذات"[25]، كما أنه يظهر أيضا من خلال الأحداث التي تستوحي واقع المجتمع والتي تنمو على يد الشخصيات الرئيسية التي تشكل المحكي من محكي سيرة ذات، وذلك على اعتبار أن الرواية الجديدة "تلجا أكثر فأكثر إلى السيرة والتخييل الذاتي ... وتعديد الأصوات واللغات، ما يجعل الكتابة ملتصقة بذوات الشخوص والمتكلمين داخل الرواية"[26]، فقوة التذويب تظهر لما تكشف نصيا جميع الأفكار من دون أن يتحيز الكاتب لوجهة نظر معينة. أي بتفجير المكون السير ذاتي، وفتح "المجال أمام كل شخصية وكل صوت داخل الرواية ليعبر عن نفسه من خلال مقومات وتضاريس ذاتية"[27]، وعبر رؤية فنية تصلها بمحيطها العام من خلال فعل التخييل، فالتذويب هو في الحقيقة تذويب المنظور الموضوعي داخل ضمير الشخصية الرئيسية، حيث يتم ذلك عبر فعل استعادي يتحكم في سياسة السرد بإضفاء طابع التخييل واستحياء المكونات السير ذاتية، وهو ما يوجد في رواية الحارس لعزت القمحاوي التي يتخذ فيها "السرد طابعا موضوعيا، متباعدا عن الذات، لكنه يشيد ذاتية مائزة لشخصية الضابط الحارس، عبر التخييل والمحكيات التفصيلية التي تضفي تذويتا على كتابة الرواية"[28].

لعل هذا المنظور هو الذي جعل برادة يعتقد أن التذويب فتح أبواب التحديث في الرواية العربية فقد خلخل البنية النصية والبنية الذاتية التي تعبر بها الذات الكاتبة عن رؤاها خاصة تلك التي تتصل بمحيطها العام، وذلك من خلال تقنيات تناسب مع إشكاليات الذات، وتتصل بفعل التخييل، حيث "يكون الروائي مصدرا لتخيلات الراوي"[29]وعبر "محمول الذاكرة، وتخصيص الفضاءات واللغة، مع حرص الروائي على إبراز ذاتيته

المتفاعلة حتى لا تكون علاقة كتابته بعالمه الروائي علاقة استنساخ ومحاكاة، بل علاقة تأويل ورؤية وإعادة خلق"[30]. هذا إضـــافة إلى اســـتثماره أنماطا أخرى تحكم منطق النص بنائيا ودلاليا، كتوظيف "اللغة الشـــفوية، والتقطيع السينمائي، واستحياء مختلف وسائط التعبير، وإدماج لغة الكلام المستجدة والاستطرادات التأملية...."[31].

لقد حرص برادة على توضيح آليات وفنيات جديدة اعتمدتها الرواية العربية تنبني في الأساس على تذويب المنظور الموضوعي وفق مكون تجريبي ممثل في المكون السير ذاتي، فالرواية العربية من منظوره أصبحت تعزف أنغامها على إيقاع الذات، وتعتمد على رؤية فنية موهومة بمقدمات موضوعية، فهي تعبر عن علاقة الذات بالكون والحياة، وتطرح رؤاها وأسـئلتها، وهذا ما جعل الناقد يعتقد بأن التذويب أهم أسـلوب سـردي يسـتند إليه الروائي في بناء تجربته، فهو الرهان الذي تحافظ به الرواية العربية على روائيتها.

الإشكالات الفكرية في الرواية العربية المعاصرة:

– نقد ثالوث المحرمات في الرواية العربية المعاصرة:

يؤكد برادة إلى أن الرواية العربية اقتحمت المحرمات وكســـرت المألوف ودخلت عوالم التجريب، فقد صـــار شـكلها الجديد شـكلا مفتوحا يسـعى إلى البحث عن المسـكوت عنه، وذلك بتحطيمها للمتداول، والوقوف على القضـــايا المحظورة (الدين والســـياســـة والجنس)، فهذه المناطق المحرمة هي التي خرجت بالخطاب الروائي العربي إلى فسحة التعدد والتنوع في التجليات والتحققات النصية لتبرز التناقضات القائمة في إطار انفتاحه عليها.

في البداية أشار برادة إلى أن موضوع الجنس في الرواية العربية المعاصرة تجاوز تلك النظرة الضيقة لصورة أنثى، وذلك بكسـره كل الطابوهات وتفجير للغامض والمسـكوت عنهن وتقديمه صـوره بطريقة كاشـفة تجعل حضـوره "متصـاديا مع العناصـر الدعائية والوسـائطية المصـورة التي تحول الجنس من أفق لتحقيق الذات ضـمن قيم الغيرية والتجاذب العاطفي إلى غزيرة حيوية تنشد الارتواء بأي طريق تيسر في الواقع والخيال"[32].

إن التجارب الروائية الأخيرة أصـبحت تحتفي صـريحا يتيمة الجنس تبرز ذلك بصـور تشـخيصـية تتراوح بين التروية والإشـــارة والتلميح على عكس الرواية التقليدية التي لم يتعدى الجنس فيها الخروج عن صـــورته الســـطحية، فالرواية الجديدة أصـبحت ترصـد الفعل كما يتصـور وقوعه في الواقع تعرض الجانب الجنسـي بعريه الكامل ووصـفه الفاضـــح، ولعل هذا ما جعل برادة يرى أن هذه الكتابة الروائية حرجت عن الدوائر المغلقة في العملية الإبداعية وذلك لأنها "تثير الانتباه بلغتها وجرأتها واقتحامها مناطق محرمة في عرف الأخلاق السائدة[33].

وبالنسبة للدين فقد صار هو الآخر يوظف في الرواية العربية بشكل مكثف مثل رواية "بمناسبة الحياة" لياسر عبد الحفيظ ورواية "فاصل الدهشة" ورواية "تبكي الأرض ويبكي زحل" لعماني عبد العزيز الفارسي، ورواية "مديح الكراهية" لخالد خليفة... فمع العلم أنه "مجموعة من الأوامر والنواهي والإرشـــادات والتقريرات تقيم للإنســـان منظومة روحية ومادية تضـبط سـلوكه وقيمه وتحدد له مسـاره للوصـول إلى السـعادة"[34] الدنيوية والأخروية، إلا أنه صـار له وظائف أخرى في الرواية إما الشّـد إلى كتاباته ولو على حسـاب الحقائق والمسـلمات، أو التعصـب في

أحكامه، وحتى يشخص لنا برادة أن هذا الأسلوب الفكري هو من أصعب الوسائل التي يعتمدها الروائي إثناء كتابته وقف على ثلاث ملامح له[35]:

صار يتجلى من خلال خطاب الطبقة السائدة وتوظيف المؤسسات السياسية له.

صار يغدوا حاضرا وراء التساؤلات الميتافيزيقية التي تلاحق الإنسان باستمرار.

تحول إلى أداة تقريع ووعيد وإلى تذكير بالموت واختبارات القبر، بدلا من تمجيد الحياة والحض على الاستمتاع بها.

أصبح وسيلة لقمع الجسد ومحاربة الغرائز والمشاعر الطبيعية.

إن هذا الاستخدام الذي يبرز رؤى مختلفة لقضايا الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي بالنسبة لبرادة هو الذي يجعل الدين حاضـــرا داخل التجربة الروائية الحديثة، بل يجعله يحتل زاوية كبيرة من هذه التجربة خاصـــة وأنه صـــار "في كثير من النصـــوص يرتبط بدائرة البطركية وقيمها الوصـــائية التي تعتمد تأويلات جامدة للنصوص الدينية"[36].

أما عن السياسة فقد أصبحت في نظر برادة تلبس لباسا يختلف عن الرواية التقليدية فهي لا تسعى إلى فضح التعذيب وتشخيص الإحباط، وإنما أصبحت "ترصد الخراب السياسي المنحدر من تطبيق سياسة تستبد بالقرار، تحتقر المواطن، تعزز الفوارق والتبعية في عصر العولمة الهوجاء"[37]. وكل ذلك كان يتم تحت اعتبارات محددة تحاول إخفاء الموضوع السياسي "عبر الفرد الرافض لبيئته والموروث، الشاعر بخسرانه، المراهن على تحدي المجتمع وقيمه المكسرة، الجاري وراء لذة الجسد"[38].

إن طرح الموضوع السياسي والديني والجنسي في الرواية العربية من منظور برادة يجعلها تخالف المألوف وتدخل عوالم التجريب لتنشأ عالما متميزا متشابها لواقع ينطلق من حدث، يأبى الرضوخ للتزييف التي كانت تقدمه النصوص التقليدية، فبهذا الشكل الجديد إذن يمكن وصف الرواية العربية المعاصرة بالرواية المتمردة التي كسرت قواعد الكتابة التقليدية.

– استثمار الجانب المعرفي في الرواية العربية المعاصرة:

تتجه الرواية العربية باعتبارها أداة خلق إلى وتوســـيع آفاق المعرفة وتوظيف العلوم الحديثة التي "تتوزع بين مجالات علم النفس، والســـلوك والذاكرة، ووصـــف الحياة اليومية في فضـــاء معين، واســـتبطان بعض الظاهرات الاجتماعية، وإعادة تأويل التاريخ عبر التخييل...."[39]. وهي تجسد كل ذلك وفق رؤية شاملة تتلاءم مع الظروف والأوضـــاع التي تعيشـــها المجتمعات العربية، وذلك لتمنح القارئ القدرة على فهم الحياة، وترتيب فوضـــى العالم في سياق منتظم يلامس بشكل وأخر مأساة الإنسان العربي وانكساراته المتتالية.

ويذهب برادة إلى أن تطور الخريطة السـردية بكل تشـكلاتها الجمالية هو الذي بعث في المتن الروائي العربي شيئا من مساءلة قيم المعرفة، فالرواية العربية لم تعد جمعا وتمثيلا للواقع، وإنما أصبحت تسائله من خلال فضاءات تخييلية تعيد تأسيس المعرفة وفق جوانب مختلفة إما "تستحضر مشاهد العنف وبؤس العيش... تكشف عن غياب

مطلق للأخلاق والقيم المكرسة في التعاليم والمبادئ الدينية"[40]، أو أنها تتميز "بإسماع صوت الشبان والشابات الذين لا يحسون بضرورة الأخلاق تحت وطأة شروط العيش وضغط السلطة البطريركية والقيم الماضوية"[41]، ومن بين هذه الروايات التي رصدت ذلك "دع عنك لومي" لخليل صويلح، "كتيبة الخراب" لعبدك الكريم جويطي، و"القوقعة يوميات متلصص" لمصطفى خليفة.

إن اقتحام المعرفة للكتابة الروائية العربية المعاصرة يجعلها من منظور برادة "تتصل أكثر بالتجربة المعيشة، والملاحظة والمعاينة، وأحيانا تتخذ طابع الشهادة على فترة تاريخية أو ظاهرة اجتماعية، يمكن أن تستحضر ...على معرفة تلتقي مع ما وصل إليه هو عبر التجارب المختبرية والتنظيرات السيكولوجية"[42]. وهذا ما يؤدي إلى تنمية حركية الكتابة الروائية وتعرية الذات، والكشف عن الغامض والمجهول ويتم ذلك وفق رؤى تخييلية تتعايش مع مستويات الواقع، فالرواية العربية ليست خيارا شكليا بل هي خيار رؤية وطريقة نظر إلى الأشياء والعالم"[43].

من هذه الزاوية إذن أشار برادة إلى أن الأدب قادر على تأسيس معرفة لا تتطابق مع المعرفة العلمية، وإنما تتطابق مع المعرفة الفكرية العملية التي تضيء السلوك البشري، وذلك من خلال الاستناد على أبنية سردية جديدة تعتمد على التخييل والإحساس أثناء تأطير المسار السردي، فهما "أداتان جوهريتان في التفكير العملي"[44]، فاستثمار المعرفة من خلال هذان العنصران إذن يعيد ترتيب الوحدات السردية في العمل الروائي العربي، بل يعيد أيضا خلق رؤى يمكن معايشتها على مستوى أخر من مستويات الواقع.

خاتمة:

لقد سعى محمد برادة بوعيه النقدي ومنظومته الإجرائية إلى وصف النص الروائي العربي المعاصر والكشف عن مكوناته الفكرية وخصائصه الفنية، إذ يرى بأنه يتقاطع مع الرواية الجديدة في توظيف تقنيات سردية حداثية كالتهجين والتشظي والتذويب، وأنه يتجاوز أيضا حدود المحاكاة البسيطة للشكل الروائي التقليدي، ويؤسس لشكل مغاير يعتمد على مبدأ التنويع في الأنماط الفكرية وذلك بتناوله للقضايا المحظورة (الدين والسياسة والجنس) واستثمار المعرفة في سياق منتظم يلامس مأساة الإنسان العربي وانكساراته المتتالية، وهو ينطلق في بحثه هذا من نظرة شمولية تتناول الرواية العربية المعاصرة من جوانب مختلفة دون أن يطبق منهجا نقديا بعينه، وذلك "لأنه يعتقد أن النظرية والمنهج ليسا غاية[45]، فهو يعتمد على الدراسات التحليلية ليرصد تحولات الخطاب الروائي العربي، ويقدمها على شكل تساؤلات تقود نحو الإجابة عن سؤال واحد يتعلق أساسا بموضوع الحداثة والتجديد في الرواية العربية.

المصادر والمراجع:

المؤلفات:

حفيظة طعام، (2019)، الرؤية والبناء في روايات عز الدين جلاوجي، دراسة تطبيقية، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط 1، أدرار، الجزائر.

صلاح فضل، (2005)، لذة التجريب الروائي، أطلس للنشر والتوزيع مطابع العبور الحديثة، ط 1، القاهرة.

عبد الحميد عقار، (2000)، الرواية المغاربية تحولات اللغة والخطاب، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط 1، الدار البيضاء.

عبد الرحمان تمارة، (2019)، الممكن المتخيل المرجعية السياسية في الرواية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط 1، عمان.

عبد المجيد الحسيب، (2014)، الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط 1، أربد، الأردن.

فخري صالح، في الرواية العربية الجديدة، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، 2009.

محمد برادة، (2011)، الرواية العربية ورهان التجديد، مجلة دبي الثقافية، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، ع 49، دبي.

محمد برادة، (2011)، الرواية العربية ورهان التجديد، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، ع49، دبي

منى جميات، (2016)، تحولات اللغة والبناء في الرواية الجزائرية الجديدة، مقاربة تطبيقية في نماذج روائية، منشورات ألفا للوثائق، ط1.

ميخائيل باختين، (1987)، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الأمان للنشر والتوزيع، ط 2، الرباط.

المقالات:

عبد الرشيد هميسي، مصطفى حناشة، (2020)، تجليات الِدين في الرواية الجزائرية، قراءة تحليلية في روايات واسيني الأعرج، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، ع 04، جامعة حمة لخضر، الوادي، الجزائر.

مواقع الانترنت:

إبراهيم عبد الله، (1998)، السيرة الروائية، إشكالية النوع والتهجين السردي، مجلة نزوى، ع 14، أبريل: https://archive.alsharekh.org/Articles/232/17917/402304

الهوامش والإحالات:

[1] محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، ع49 دبي،2011، ص48.

[2] ينظر: منى جميات: تحولات اللغة والبناء في الرواية الجزائرية الجديدة، مقاربة تطبيقية في نماذج روائية، منشورات ألفا للوثائق، ط1، 2016، ص26.

[3] صلاح فضل: لذة التجريب الروائي، أطلس للنشر والتوزيع مطابع العبور الحديثة، ط1، القاهرة، 2005، ص3.

[4] ينظر: حفيظة طعام: الرؤية والبناء في روايات عز الدين جلاوجي، دراسة تطبيقية، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط1، أدرار، الجزائر، 2019، ص73.

[5] محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، ص37.

[6] المرجع نفسه، ص37.

[7] المرجع نفسه، ص49.

[8] المرجع نفسه، ص13.

[9] عبد المجيد الحسيب: الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، أربد، الأردن، 2014، ص242.

[10] محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، ص54.

[11] ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الأمان للنشر والتوزيع، ط2، الرباط، 1987، ص108.

[12] محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، ص 54.

[13] المرجع نفسه، ص55.

[14] المرجع نفسه، ص55.

[15] المرجع نفسه، ص55.

[16] المرجع نفسه، ص55.

[17] عبد الحميد عقار: الرواية المغاربية تحولات اللغة والخطاب، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط1، الدار البيضاء، 2000، ص89-90.

[18] محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، ص57.

[19] المرجع نفسه، ص51.

[20] المرجع نفسه، ص52.

[21] المرجع نفسه، ص52.

[22] المرجع نفسه، ص53.

[23] المرجع نفسه، ص53.

[24] المرجع نفسه، ص67.

[25] عبد الرحمان تمارة: الممكن المتخيل المرجعية السياسية في الرواية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان ط1 ،2019م، ص107.

[26] محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، ص67.

[27] المرجع نفسه، ص نفسه.

[28] المرجع نفسه، ص نفسه.

[29] إبراهيم عبد الله: السيرة الروائية، إشكالية النوع والتهجين السردي، مجلة نزوى، ع14، أبريل 1991، ص17.
https://archive.alsharekh.org/Articles/232/17917/402304

[30] محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، ص68.

[31] المرجع نفسه، ص68.

[32] المرجع نفسه، ص57.

[33] المرجع نفسه، ص60.

[34] عبد الرشيد هميسي: مصطفى حناشة، تجليات الِدين في الرواية الجزائرية، قراءة تحليلية في روايات واسيني الأعرج، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، ع04، جامعة حمة لخضر، الوادي، الجزائر، 2020، ص306.

[35] يظر: محمد برادة، الرواية العربية ورهان التجديد، ص60-63.

[36] المرجع نفسه، ص64.

[37] المرجع نفسه، ص64-65.

[38] المرجع نفسه، ص76.

[39] المرجع نفسه، ص68.

[40] المرجع نفسه، ص67.

[41] المرجع نفسه، ص69.

[42] المرجع نفسه، ص70.

[43] فخري صالح، في الرواية العربية الجديدة، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009، ص15.

[44] محمد برادة، الرواية العربية ورهان التجديد، ص70.

[45] المرجع نفسه، ص6.